

وبعد ان اتم العرب المسلمون فتح العراق وبلاد الشام ومصر في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، تقرر انشاء قواعد تستقر فيها الجيوش، وتقوم منها بالفتوح، ويقيم فيها الولاة المسؤولين عن ادارة الجيوش العربية والاقاليم المفتوحة، وقد اشترط عمر فيها ان لا يكون بينها وبين جزيرة العرب حاجز مائي يفصلها عن الجزيرة وان تكون على طرف الصحراء، بينها وبين الريف، وان يكون مناخها ملائماً للعرب.

وكانت هذه المراكز تسمى الامصار، وهي المدينة المنورة في الحجاز، وجوانا في البحرين، والجابية في الشام، والبصرة والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر ويلاحظ ان كلا من المدينة وجوانا والجابية كانت قائمة قبل الاسلام، اما الثلاثة الاخرى فقد انشأها المسلمون، وكان كل منها بقرب مركز قد يم فالبصرة انشئت قرب الابله والكوفة قرب الحيرة، والفسطاط قرب حصن بابلون وهيلوبوليس.

وفي خلافة عثمان الغيث قاعدة جوانا، واتخذت البصرة قاعدة اساسية لفتوح الاقاليم الواقعة في جنوبي هضبة ايران وفي خراسان كما ان تعرض بلاد الشام الى تهديدات الروم من الشمال والغرب اخطرهم الى الغاء قاعدة الجابية والى توزيع القوات الاسلامية على لون الساحلي وفي اجناد بلاد الشام وهي الاردن وفلسطين ودمشق وحمص، ثم قنسرين وفي اوائل العصر الاموي انشاء العرب قاعدة لهم في القبروان في شمال افريقية كما حصروا في المشرق قزوين واربدين والري، وكذلك مرو في خراسان، ومصر وبعد ذلك بلخ، وبخارا واقاموا حاميات دائمية في مدن متعددة. تتميز عن المدن الاعجمية، كما ان توزيع العطاء على سكانها وما يتطلبه من تنظيمات خاصة وما يؤدي اليه من نتائج اقتصادية، جعلها تتميز عن بقية المدن العربية الاخرى.

كانت هذه الامصار مراكز الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية في القرن الاول الهجري، بحيث يمكن القول ان التاريخ المدون لهذا القرن هو تاريخ هذه الامصار التي جرت فيها معظم الاحداث السياسية التي دونتها الكتب التاريخية ثم ان القاعدة التي سار عليها العرب بصرف واردات الاقاليم على مقاتلة المصر الذين قاموا بفتح هذا الاقليم، ادى الى ان ترد كل مصر بمبالغ كبيرة من النقود سنويا لتوزع بين سكانها، وكذلك بدأت النقود تتراكم في هذه الامصار وازداد دخل الفرد وقدرته الشرائية، وارتفع مستوى المعيشة، ونشطت الحياة الاقتصادية بمختلف مظاهرها.

ثم ان استيطان العرب في هذه الامصار، وتأمين العطاء لاسباب حياتهم المادية الاساسية، وتوفر اوقات الفراغ لديهم، جعلهم يتابعون اهتمامهم القديمة بالمناقشات السياسية والادبية التي اخذت تزدهر، ونشطت بجانبها بحوث في عدد من المواضيع الاخرى وخاصة الفقه ثم الحديث والقران، وكان لصلة هذه الامصار بعرب الجزيرة اثر في ازدهار الدراسات اللغوية والادبية في هذه الامصار وخاصة في الكوفة والبصرة وذلك بحكم قربهما من الصحراء وصلتها الوثيقة بالعرب المقيمين في الصحراء والذين يختار كثير منهم حاجاته منها، وقد قوت هذه الصلة الوثيقة بين هذه الامصار وسكان الجزيرة، من خلال الحكم بالمثل البدوية وافكارها وخاصة في الاخلاق والاداب، فكانوا يمجدون الكرم والسخاء والشجاعة والنجدة، وكذلك الشعر الذي يمكن اعتباره بأساس مخيلته وافكاره امتدادا للشعر الجاهلي الصحراوي. وقد ادى نمو الثقافة للثقافة الصحراوية الى نمو اعتقاد بين الناس ان مظاهر هذه الثقافة وقيمها تمثل الثقافة العربية، وان التهجم عليها يعتبر تهجماً على العروبة.

وبحانب ازدهار الحياة الاقتصادية ونموها، ظهرت المشاكل والقضايا التي ادت دراساتها الى نمو الفقه والى ظهور عدد من الفقهاء الذين اهتموا بالقضايا والمشاكل التي كان يواجهها المجتمع في امصارهم وقدموا لها الحلول والاجابات ومع انهم اتخذوا القران والحديث اساساً لدراساتهم الا انهم في الامور الكثيرة التي استجدت بعد توسع الدولة وخاصة في ميادين الحياة الاقتصادية، راعوا الاعراف السائدة والتقاليد المتبعة فاقروا بها مادامت لا تعارض مبادئ الاسلام وقد سجلت البحوث الفقهية منذ القرن الثاني للهجرة في كتب واضحة كالموطا والمدونة للمالك، وكتب الشيباني، وجعفر الصادق. وصارت هذه الكتب الواسعة اساس المذاهب والدراسات الفقهية الدولية، ولا يزال عدد كبير من الناس يرى ان السبيل التوحيد لاصلاح الاوضاع القائمة هو تطبيق ماجاء في هذه الكتب التي تعكس كثيراً من اوضاع الامصار الاسلامية في القرن الاول والثاني، اي انهم يرون ضمناً ان نظم الامصار الاسلامية هي الصورة المثالية للمجتمع الاسلامي السليم.

لقد بينا ان اغلبية المقاتلة الذين استوطنوا الامصار هم العرب الذين جاؤوا من جزيرة العرب وكانوا متشبعين بروح البدوة ونظمها فكان تنظيمهم قائماً على العشائر، ومن المعلومة ان كل عشيرة تتكون من عدد من الافراد المنحدرين او الذين يعتقدون انهم ينحدرون من جدأ واحد مشترك يحملون اسمه عادة، وتضم كل عشيرة عدداً من الاسر يتمتع العرب في كل منها بسلسلة روحية وقانونية على افرادها، وخاصة على النساء والاطفال، ولا ريب ان الروابط التي تربط افراد الاسر ببعضهم ببعضهم وثيقة، ولكن الأسرة لم تكن تعتبر وحدة متميزة ثابتة في المدينة، لان الذكور من افرادها كانوا بعد وصولهم سن البلوغ ينفصلون في الغالب ويكونون اسره خاصة مستقلة، الامر الذي جعل عدد الاسر يتغير باستمرار. ويقيم افراد كل عشيرة في منطقة محصورة في المدينة تدعى خطة وتسمى باسم العشيرة، ولافراد العشيرة الافضلية في اخذ ارض كل فرد يغادر خطة عشيرته، ويسمى هذا حق العشيرة، وهكذا فان خطة كل عشيرة تبقى محصورة بافرادها سواء زاد عددهم او تناقص.

ويشترك افراد العشيرة الواحدة في بعض الحقوق والواجبات، منهم يساهمون جميعاً في دفع دية القتل الخطا الذي يرتكبه احد افراد العشيرة او موالها بصرف النظر عن علاقاتهم بالقاتل او المقتول او الجريمة كما انهم يشتركون في وراثة من يموت ولا وارث له من افراد العشيرة. ولما كانت هجرة العشائر الى الامصار قد تمت بصورة تدريجية ومن غير تخطيط دقيق، فقد ادى هذا الى تباين عدد افراد العشائر والى حدوث مشاكل ادارية كبيرة، ولذلك اعيد تنظيم العشائر في زمن معاوية فجعلت كل عشيرة مكونة من الف مقاتل مع عيالهم، وقد قسمت العشائر

الكثيرة العدد الى عدة عشائر، اما العشائر الصغيرة فقد ضمت الى ارضي وذلك لكي يكون عدد كل عشيرة الف مقاتل. وبذلك حدث انتظام وتناسق بين مختلف العشائر.

وكان على كل عشيرة فريق مسؤول عن الامن والنظام في العشيرة فعلى العريف مراقبة المشاغبين ومثري القلاقل والفتن واخبار الحكومة عنهم، وكانت الدولة تعتبر كل عشيرة مسؤولة عن حفظ النظام ومنع شغب المشاغبين فيها، والا فانها تعاقب العشيرة كلها.

وبحفظ العريف سجلا باسماء افراد العشيرة ومواليها ومقدار عطاء كل فرد، منها وهو يقوم بتوزيع العطاء على الافراد. وكانت الدولة توزع العطاء على المقاتلة العرب المقيمين في الامصار فيعطى كل فرد مقابل خدمته في الجيش او اسنادة الاسلام، مبلغاً من المال الذي يرد من الغنائم او جبايات الاقاليم. وقد اعتبر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الاقاليم المفتوحة فيئا على المسلمين، ونظم توزيع جبايتها على المقاتلة العرب في الامصار.

وكان العطاء فرديا. وقد قدره عمر في الحجاز على اساس السبق في الاسلام، فاعطى كل من شارك في معركة بدر ٥٠٠٠ درهم وفي معركة احد ٣٠٠٠ درهم، وفي الحديبية ١٥٠٠ اما من اسلم بعد الفتح فقد كان عطاؤهم متباينا ولكنه لايزيد على ٥٠٠ ولا يقل عن مائتين. اما في الامصار الاخرى فقد فرض عمر للناس حسب اسبقيتهم في المساهمة في الفتوح ففرض لمن اشترك في المعارك التي حدثت قبل القادسية واليرموك ثلاثة الاف درهم ولن شارك في المعارك بعد القادسية واليرموك الف درهم. ولن جاء بعد ذلك خمسمائة ، وثلاثمائة واقل ما فرضه هو مائتين وجعل للنساء مائتين وللاطفال مائة درهم.

غير انه كان لايد ان تحدث تعديلات على التنظيمات التي وضعها عمر اذ ان عمر وزع كل جباية الاقاليم ولم يبق احتياطا للمهاجرين الذين ظلوا يتقاطرون على الامصار. كما ان عمر لم يضع قواعد لتقدير العطاء لمن يحل محل من كان ياخذ عطاء كبيرا بعد موته، ولا نعلم كيف تطور النظام، ولكن الصورة التي نجدها في المصادر عن العطاء في العصر الاموي تظهر ان الحد الاعلى للعطاء هو الفين وخمسمائة درهم، ويسمى شرف العطاء وهو يعطى للمقدمين في السن ولن يبدي بسالة في القتال وكان عدد من في شرف العطاء يبلغ حوالي عشر المقاتلة في كل مصر. اما الحد الادنى للعطاء فهو مائتي درهم، وهو مبلغ يضمن لمن ياخذه الحد الادنى من المعيشة. وبين هذين الحدين اصناف ياخذ منهم الناس ٣٠٠، ٤٠٠، ٥٠٠، ٧٠٠، ١٠٠٠، ١٥٠٠.

ويعطى الافراد زيادات ومعونه في مناسبات متعددة، كتولي الخليفة منصبه، او عند الحاجة الى ارسال البعوث. وكان العطاء يدفع سنويا، ويعطى عادة في المحرم اي في اول السنة الهجرية. غير أن الدولة كانت تضطر احيانا الى تاخير دفع العطاء، الامر الذي يسبب كثيرا من المشاكل الاقتصادية للافراد الذين يعتمدون في معاشهم على العطاء.

وتوزع الدولة بالاضافة الى ذلك، ارزقا من المواد الغذائية قدرت تبعا لحاجة كل فراد. وعلى من ياخذ العطاء ان يجهز نفسه بالسلاح، وان يقاتل مع الجيوش الاسلامية اذا طلبت الدولة منه ذلك، غير انه كان يجوز ان يرسل الفرد مكانة بديلا في البعوث، وياخذ البديل اجرا من صاحب العطاء مقابل اشتراكه في القتال بدله، وكان كثير من البدلاء من الاعاجم، ولا بد ان عددهم ازداد في الحروب التي قامت ضد الخوارج.

وكان عطاء النساء مائتي درهم لكل امراة، اما الاطفال ممن هم دون السابعة عشر فقد خصص لكل منهم مائة درهم، ويبدو انهم كانوا يختارون من كل اسرة طفلا واحدا فاذا بلغ سن الرشد جعل في العطاء.

لقد كان العطاء يقدر للافراد، ويوزع بواسطة العرفاء، ويتم ذلك بان يحسب ما يستحقه افراد كل عشيرة، ويسلم مجموع ذلك الى العريف فيقوم العريف بتوزيعه على الافراد. اي ان تقدير العطاء كان فرديا اما توزيعه فكان جماعيا. واذا لم تكف وارادات الدولة لسد تكاليف العطاء فان الدولة كانت تلجأ الى انقاص ما يصيب كل عشيرة او تفضل بعض العشائر على غيرها.

ويتبين من هذا ان العشيرة كانت اساس التنظيم الادارى والمالي في الامصار ومن الطبيعي ان العشيرة كانت وحدة عسكرية في تنظيم الجيش الاسلامي اي افراد العشيرة كانوا يقاتلون معا في الجيش، غير ان تسهيلا لادارة الجيش وتنظيمه فقد كان لا بد من تجمع بعض العشائر ضمن وحدات كبرى، فكانت تجمع العشائر المتقاربة في النسب ويتكون منها وحدة كبرى يجعل لها رئيس يعينه الخليفة. وقد جعلت البصرة اخماسا اي خمسة قبائل رئيسية، اما الكوفة فجعلت ارباعا اي اربعة اقسام رئيسية.

ونظرا لكبر حجم القبيلة وكثرة عدد افرادها فانها كانت اهم وحدة في تنظيم الجيش وكذلك في الحوادث والازمات السياسية الكبرى اذ ان كثرة عدد افرادها جعلها اقدر من العشيرة الصغيرة على الدفاع عن افرادها كما ان الوالي كان اسهل عليه ان يتعامل مع قبائل محدودة العدد من ان يتعامل مع عشائر كثيرة.

غير ان القبيلة رغم اهميتها لم تطغ على العشائر فقد ظلت العشيرة هي الوحدة الاساسية في التنظيم الاجتماعي والمالي والاداري. وكثيرا ما كانت تقوم بين عشائر القبيلة الواحدة خصومات و منافسات تزيد من اضعاف تماسك القبيلة التي ينتمون اليها.

لقد كانت سلطة القبائل وروابطها القائمة على اساس علاقة الدم والعصبية في العهود الاولى، وذلك لحدثة عهد العرب بحياة البداوة وما فيها من عصبية قبلية، وكذلك لحاجة الدولة الى خدمات المقاتلة العرب فكان لا بد ان تجارى مشاعرهم.

غير ان استقرار العرب في الامصار ادى تدريجيا الى ضعف الروابط القبلية وروح العصبية وقد ساعد على هذا الاضعاف عدة عوامل منها:

١- ازدياد سلطة الولاة: فالوالي يمثل الخليفة فهو يمثل السلطة العليا وسلطانه فوق سلطان العشائر، وهو المسؤول عن اعداد الحملات

العسكرية والقيام بالفتوحات وكان الوالي يقوم بقيادة الحملات بنفسه ولكنه احيانا يختار لقيادة الحملات رجالا يختارهم بنفسه كما انه

هو الذي يختار ولاية الاقاليم والمدن التابعة للمصر، ولما كانت المناصب تدر على من يشغلها جاها وارباحا، فان كثيرا من الناس ابد يتقربون الى الولاية للحصول على هذه المناصب وبذلك انفصلوا تدريجيا من عشائريهم والتفوا حول الامير وزادوا من قوته. وللوالي مكانة خاصة باعتباره ممثلا للخليفة الذي يعترف الجميع بمكانته المتميزة في الدولة على الناس، وكان الامير ايضا يرمي المصالح العامة للمجتمع ككل وليس مجرد مصلحة عشيرة واحدة، وكان ايضا يحفظ التوازن بين العشائر. ثم ان الوالي كان مسؤولا عن الادارة العامة في المصر وما يرتبط بها من المدن والاقاليم فله سلطات واسعة على منطقة واسعة كما انه كانت تتبعه الدواوين الذين كان الموظفون العاملون فيها ياخذون من الدولة رواتب وينفذون اوامر الوالي، وكان اكثر هؤلاء الموظفين من الاعاجم وليست لهم عشائر تسندهم، فكام من مصلحتهم الالتفاف حول الامير واطاعته وقد ساعد هذا على تثبيت سلطة الوالي. ثم ان بعض الامراء كانت لهم ثروات واسعة واموال عظيمة تحت تصرفهم وقد ساعدت على توسيع نفوذهم وتقوية مركزهم وتثبيت مكانتهم الشخصية.

٢- تكون روابط جديدة بين السكان قائمة على اسس غير عصبية الدم فان استقرار العرب في المصر واستتباب الامن والسلام ادى الى اختلاط الناس من مختلف العشائر، وحدث التزاوج من العشائر المختلفة، وبذلك نشأ جيل كان كثير من افراده يرتبطون بعشيرة ابيهم التي تختلف عن عشيرة امهم، فزاد من ارتباط العشائر ببعضها ولم يعد الارتباط بالعشيرة خالصا. ثم ان السكان في كل مصر ازداد عددهم لدرجة لم يعد يكفي معه دخل المدينة لسد تكاليف العطاء لجميع السكان الامر الذي ادى الى زيادة عدد من لم يكن من اهل العطاء فاصبحوا خارج سيطرة العشيرة، ولا بد انهم اخذوا ينظرون بعين الحسد الى من كان ياخذ العطاء، وكان لابد ان يؤدي ذلك الى تفكك العشيرة.

٣- ثم ان ازدهار الحياة الاقتصادية ونشاط التجارة واعمال السوق والارباح التي تدرها وحياة الطمأنينة التي توفرها، جلبت كثيرا من العرب الى المساهمة فيها وقد ادت الاعمال التجارية بالمشتغلين بها الى تكوين علاقات بين اناس من عشائر مختلفة، ومن المعلوم ان العلاقات التي تربط رجال الاعمال ببعضهم قد تكون اقوى من الروابط بين الاقارب وهكذا فان المصالح الفردية المتزايدة ومسؤولياتها ادت بالكثيرين الى ان يستقلوا تدريجيا عن عشائريهم.

٤- ومن العوامل التي ادت الى اضعاف الروابط القبلية هو الدين الاسلامي الذي يدعوا الى الاخوة والمساواة بين معتنقيه والى التفاضيل بالتقوى، بصرف النظر عن اصلهم او جنسهم. لقد اوجد الاسلام روابط جديد واسعة تربط بين من يدينون به واخذ يؤثر على نظرات الناس الاجتماعية، وكان اوضح تائيرا في اواسط المتدينين. وفي الفرق الكثيرة التي ظهرت وكانت كل منها تجمع اناسا من مختلف العشائر والاجناس احيانا، فقد كونت هذه الفرق روابط فكرية وعقلية، وساعد انتمائهم الى هذه الاحزاب ومساهماتهم في نشاطها الى زيادة تماسكهم مع افراد فرقهم او حزبهم والى ضعف صلتهم بعشيرتهم.

المصدر: الشيخ محمد هادي اليوسف الغروي، موسوعة التاريخ الاسلامي.